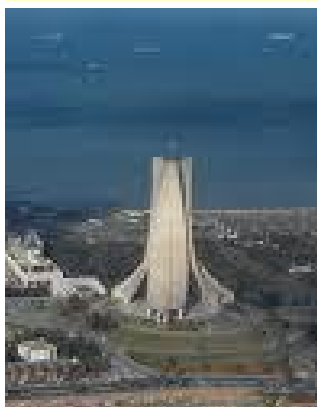


حتى لا يغادرنا التاريخ..... خارطة طريق لمستقبل الجزائر

الأستاذ : محمد فايز



يعاني العقل العربي اليوم من مشكلة العجز والقلق إزاء المشكلات الراهنة، فهو يواجه مشكلة الاقتباس من الفكر الإنساني من ناحية، في حين تشده إلى الوراء أشكال من التقاليد والعادات المميّنة من ناحية أخرى [1]، وفي خضم هاتين القوتين شكلت داخل الساحة العربية والإسلامية مجموعة من المشاريع الفكرية المتدافعة فيما بينها لصياغة النهضة المنشودة تجلت مظاهرها في الملبس واللغة والخطاب والعلاقات والمصالح ومناهج التربية والثقافة والسياسة والسلوك الأخلاقي معتمدة في ذلك على تفسير التاريخ ونظريات العلوم و الدراسات المقارنة بين المجتمعات الإنسانية، وإذا درسنا تلك المشاريع وفق أدوات المنهج الجدلي فإنها طرحت قضاياها انطلاقاً من إيديولوجية تتبناها بعيداً عن احتياجات المجتمع والدولة، فالمدسة الإسلامية بالغت في مجال الأخلاق والاعتقاد إلى حد نمذجة اللباس والحركات، بينما تجاوزت المدرسة العلمانية باسم الحرية والتقدم إلى حد استباحة القيم والمفاهيم والعلاقات، من هنا ظهرت النظرية البنابية (نسبة لمالك بن نبي) لبلورة تصور دقيق يعيد المسألة إلى المربع الأول: - ما هي القضايا الأساسية لبناء المجتمع والحضارة؟

بناء الحضارة هي رسالة تاريخية تعتمد أساساً على صناعة الإنسان، فهو الطاقة الدافعة لكل عمليات التفاعل والتحول بين الأفكار والأشياء ضمن حركة التاريخ، وهو ليس كائنًا متحلاً يحتاج إلى تفاعل ليمبائي لتجميع عناصره المتناثرة بل هو كتلة ملتزمة تجمع بين المادة والروح، والعقل والعاطفة، والخصوصية والاجتماعية، وبالتالي صناعة هذا الإنسان هي لب الاختلافات بين تلك المشاريع والايديولوجيات، مما يقودنا إلى أسئلة أخرى:

- ما هي الأمراض العقلية والنفسية التي ينبغي أن يتخلص منها الإنسان المسلم المعاصر؟
- وما هي المهارات التي يستدعي اكتسابها في عصر العلم والمعرفة والتقنية؟

1- الفعالية:

أصيب العقل العربي بعقدة العجز عن التفكير وإنتاج الأفكار والوسائل تتجلى في غياب الدراسات والأبحاث وطرح الحلول والبدائل للمشكلات وتكوين فرق البحث، فالمقالات المنشورة في المجالات الجامعية أغلبها لا يتجاوز الدراسات الأكاديمية المسجلة لتحضير الماجستير والدكتوراه وبعدها ينتقل الباحث إلى التقاعد العلمي قبل التقاعد الوظيفي، وتتجلى ظاهرة الحديث (الهدرة) والروتين و ضياع الوقت بين الموظفين والكوادر في مؤسساتنا العامة بسبب غياب برامج عملية

تعمل على تطوير المؤسسة مما يدفع القيادة الإدارية لا تفكر إلا في سجل حضور الموظفين وزيادة البنائيات ، كما تبرز غلبة كتب حوليات البكالوريا في مكتباتنا العامة أكثر من الكتب والدراسات التي تحلل الأحداث السياسية مثل الإرهاب في الجزائر، والتطرف الديني ، و تأسيس الحكم الراشد ومشاكل البحث العلمي أو الدراسات الاقتصادية مثل الصناعة في الجزائر، أو مستقبل التكوين المهني ، وإستراتيجية الأمن الغذائي في الجزائر وغيرها إن التنمية البشرية في بلادنا لا تتعدى منح الشهادات العلمية أو ترصتات إلى الخارج، وحتى الإعلام الآلي الذي يعتبر وسيلة تقنية للبحث وتكوين قاعدة بيانات أصبح أداة لأفلام الترفيه في مكاتب المؤسسات والمكالمات العاطفية في مقاهي الانترنت ، نحن نملك كثير من الوسائل والأدوات ولكن ليست لها فعالية في حياتنا ، لقد فقدنا المنطق العملي واستخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الإمكانيات المتاحة .

2-الوضوح في التصور الاستراتيجي :

من الموازنات العقلية التي استنتجها المفكر مالك بن نبي من تاريخ الحضارات قوله: (لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء بل بمقدار ما فيه من أفكار) [2] فالإبان شحيح من حيث الموارد الطبيعية ولكنه يملك ترسانة من الكوادر العلمية ومراكز البحوث والدراسات التي وضعت البلاد في مقدمة الدول الصناعية الكبرى ، وتعرضت ألمانيا إلى تدمير قدراتها العسكرية و بنيتها التحتية كلياً ولكنها عادت لتقود الاتحاد الأوروبي بفضل عقلها الإبداعية ونظامها المؤسسي، ذلك النظام القائم على تطوير الكوادر البشرية و امتلاك قاعدة بيانات و تخطيط استراتيجي ومناخ عمل يشجع روح المبادرة والإبداع والإنتاج الفكري، في حين تعجز مؤسساتنا أن تطرح برامج تدريبية للإطارات والموظفين لتحسين الأداء والإنتاج ، ومن الملاحظات الدقيقة أن العالم يعيش مرحلة نهاية الأيدولوجيات التقليدية وتشكيل الأقطاب الحضارية القائمة على العلم والمعرفة والمصالح الحيوية والإستراتيجية، بينما نحن لا زلنا نجهل ما هي أولوياتنا في المرحلة القادمة ؟ ما هي العلاقة بين البحوث الجامعية و التنمية المطلوبة ؟ على أي أساس يتم تحديد اختصاصات التكوين المهني ؟ لماذا تطرح تخصصات جامعية لا علاقة لها بالمحيط الاجتماعي أو الشغوي ؟ لماذا تتغير المنظومة التربوية في كل مرة ؟ ما هي اتجاهات الرأي العام في المشاكل الراهنة ؟ ما هو مستوى التنمية البشرية في الدولة ؟ ما هو دور الكوادر العلمية في عملية التنمية ؟ ما هي الخطة الصناعية التي نراهن عليها لضمان مستقبل المجتمع ؟

ما هي إستراتيجية الأمن الطاقوي أمام المرحلة الانتقالية في عالم الطاقة ؟

نحن هنا لا نطرح هذه القضايا بخلفية سياسية ولكن نضع القضية في إطار التصور الاستراتيجي الذي يجعل صناع القرار يفكرون في مستقبل الدولة وفق رؤية علمية مبنية على حقائق الدراسات و البحوث التطبيقية والميدانية . الثروة الاجتماعية تكمن في كمية الأفكار ونوعيتها والاستفادة منها وليس في عدد الأشياء و إحصائها وتكديسها. من التجارب النبيلة التي نالت إعجاب الخبراء في العالم ووضعت دولة البنقلاديش على عتبة الحداثة والتقدم هي تجربة (بنك الفقراء) التي أسسها عالم الاقتصاد البروفيسور محمد يونس حيث بموجبها تغيرت القرى والأرياف وحياة الفقراء إلى الحياة العصرية [3] وهي تجربة انطلقت من واقع البلاد وزماتها ولم تكن مستوردة من الغرب الذي تؤسس فيه البنوك على قواعد رؤوس الأموال الكبيرة.

3- القاعدة الصناعية:

من النعم الكبرى التي نتمتع بها في الجزائر أن التعليم والصحة والكهرباء والاتصال والنقل وصلت إلى كل مكان في هذا القطر العزيز مع النمو السكاني السريع بفضل موارد النفط والغاز ومن الظواهر الملفتة للنظر أن أعداد هائلة من الكوادر الجامعية وخريجي المعاهد ومؤسسات التكوين المهني تنتشر في أرجاء البلاد لا تستقبلها إلا الإدارات ومؤسسات التعليم، كما اتجه بعضهم إلى التجارة والنقل بعد قضاء زهاء عشرين سنة من الدراسة والتعليم لم يستفيد من تخصصه العلمي في الحياة العامة، وثرت هذه الظاهرة على توجهات الطلاب حيث تفضل العلوم الإنسانية والإدارية والآداب على التكنولوجيا والعلوم التجريبية، والسر في ذلك يعود إلى غياب الصناعة والقاعدة التقنية التي تحرك الاقتصاد وتوفر مناصب العمل مع العلم أن الصناعة هي القوة الإستراتيجية في عالم الاقتصاد وقطاب الهيمنة، فمنذ صدور الميثاق الوطني 1976 م لم تطرح أي خطة صناعية بديلة إلا في حدود قانون الاستثمار الذي لم يستجيب كليا للاحتياجات الحيوية والإستراتيجية إلا في ميادين معينة كالبنية التحتية والمرافق العامة وقطاع الطاقة والاتصالات الإلكترونية مثلا، ولقد كانت سياسة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة مشروعا طموحا لتأهيل الاقتصاد الوطني وامتصاص البطالة ولكنها من ناحية أخرى افتقرت إلى دور الخبراء وتطوير التكوين المهني وتدريب الشباب على القيادة والإدارة والتسيير، نحن هنا لا نطرح الأفضلية بين القطاع العام والقطاع الخاص بل نناقش السياسة الإستراتيجية التي يتوجب على الخبراء وصناع القرار التفكير في تأسيس المشروع الوطني للصناعة والتكنولوجيا الذي يحصن الدولة ضد الهيمنة والاختراق والتبعية، لذلك عبر الأستاذ مالك بن نبي بقوله: (من المسلم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه، وعليه فيجب أن نلاحظ في كل فن هذين الاعتبارين) [4].

4- البحث العلمي:

يعود التفوق الأمريكي في كل مجالات النشاط الإنساني إلى المنهج التعليمي في المدرسة الذي أسسه عالم التربية جون ديوي حيث قال في كتابه (الديمقراطية والتربية) :
(we must teach the child how to think not what to think) بمعنى يجب أن نعلم الأطفال كيف يفكرون وليس في ماذا يفكرون، وهو صاحب نظرية المشروع في الطريقة التعليمية حيث يوضع أمام التلميذ مشكلة حيوية معينة ثم يطلب منه وضع خطة علمية لحلها، وفي ذلك تدريب على التفكير وصناعة البدائل وتحليل الأهداف، هذه النظرية هي إحدى أعمدة الفكر البراغماتي الأمريكي، غير أن المتأمل في مناهجنا التعليمية لا يجد أكثر من التلقين وحل التمارين استعدادا للامتحانات، وتلقي هذه المنهجية بظلالها حتى في التعليم العالي فكانت بضاعتنا في البحث العلمي ضئيلة، وذلك ما يسانده رأي المفكر جودت سعيد بقوله: (في شباب العالم الإسلامي من عندهم استعداد لبذل أنفسهم وموالمهم في سبيل الإسلام، ولكن قل أن تجد فيهم من يتقدم لبذل سنين من عمره ليقضيها في دراسة جادة، لينضج موضوعا، أو يصل به إلى تجلية حقيقة، مثلا كمشكلة الانفصال الذي يعيشه المسلم بين سلوكه وعقيدته، إذ كثير من الأسئلة التي تطرح ولا جواب شافيا لها، مع أنه لا يمكن التغيير من وضع إلى وضع، إلا بعد إجابة موضوعية عن هذه الأسئلة، ولا يمكن ذلك إلا بعد التحصيل والدرس . والسبب في بقاء نمط دراسات من هذا النوع، هو أنه لم تكشف قيمة الدراسة في الوسط الإسلامي، الذي ظل وقتا طويلا يرى، السيف أصدق إنباء من الكتب ولم يكن اتجاهه إلى أن الرئي قبل شجاعة الشجعان) [5].

إن كل مهارة علمية أو سلوكية أو فنية هي نتيجة عادات متكررة يتدرب عليها المتلقي، ولذلك كان التقليد المستمر هو إفراز لطريقة التربية والتعليم والتدريب في الأسرة والمدرسة والجامعة والمؤسسات العامة، فالبحث العلمي ينبغي أن يكون فنا من الفنون والمهارات التي يتعلمها الطالب منذ الصغر وليس خاصا بالخبراء و الباحثين ، كما يتطلب إدخال البحوث التطبيقية إلى المؤسسات العامة لتكون قاعدة البيانات وتقديم الخبرة العلمية لصانع القرار ، مع ربط البحث الجامعي بالحياة الميدانية .

5- المرجعية الفكرية :

من أكثر الأسئلة التي أثارت جدلا واسعا في الحياة العامة هي مفهوم الثقافة ومظاهرها، ما الفرق بين المثقف و الإنسان العادي ؟ ما هو دور الثقافة في بناء الدولة والمجتمع ؟ ما هي عناصر الثقافة التي تشكل وعي المجتمع ؟ ما الفرق بين الثقافة و العلم و الدين والسياسة ؟ كيف تتشكل ثقافة المجتمع ؟ هل تتغير الثقافة عبر الزمن ؟ وما هي العوامل المؤثرة في تغييرها ؟.

الثقافة وفق تعريف مالك بن نبي هي أسلوب حياة التي تميز مجتمع إنساني في تعامله مع القضايا الحيوية و الإستراتيجية دون الأخذ بعين الاعتبار المواقف الناجمة عن المستوى العلمي أو المركز الاجتماعي للأفراد ، بمفهوم آخر الثقافة هي الضمير الجمعي (المرجعية الفكرية) الذي تشكل عبر مراحل تاريخية وتتجلى مظاهره في الخطاب العادات و اللباس والأفراح والأتراح والمواقف الثابتة ، وهي تأليف لعالم الأشخاص طبقا لفلسفة أخلاقية واجتماعية تصنع سلم القيم (المثل العليا) الذي يدين له المجتمع ويحترم قواعده ودوائه ومقدساته ، ووفق ضوابطه يتحدد النظام المؤسساتي الذي يأطر النشاط الإنساني .

المجتمع الجزائري انصهرت ثقافته أو مرجعيته الفكرية عبر التاريخ طبقا لعناصر عديدة مثل الإسلام واللغة والثقافات المحلية و أحداث التاريخ ووحدة المصير والمشكلات المتوالية ، فصنعت هذه العناصر مجموعة من القيم مثل حب الخير وكران الظلم وعشق الحرية و العمل الجماعي والدفاع عن الأرض والعرض وغيرها، ولكن من جانب آخر هناك قضايا جديدة مثل الأزمة الاقتصادية والإرهاب وغياب الشفافية والنزاهة والمحسوبية والجهوية أفرزت أخلاقيات وظواهر خطيرة مثل الفساد المالي والانتهازية والجيوب الجماعية في المؤسسات ، والمصلحية في العلاقات ، ونسف الأعراف، وغياب القيادات الكاريزمية، والانسحاب من المجتمع ونمط من التدين الغريب ، والأمر الأخطر هو نسبة 75 % من الشباب أغلبها يعرف عن المباريات الرياضية والمغنيين والمغنيات الأحياء منهم والأموات أكثر ما يعرف عن أحداث التاريخ وعناصر الهوية وطبيعة الصراع الحضاري والإستراتيجي المعاصر بسبب غياب المحاضن التربوية والفكرية التي تأهل القيادات لبناء المستقبل ، فنحن نعيش في عصر العولمة الثقافية التي تخترق الدول والحضارات وصناعة الحروب الأهلية، وما قضية دارفور عنا ببعيد فقد اخترق المجتمع السوداني بنخبته المتعلمة الحاملة لمعاول الهدم والتفتيت بمشروع خارجي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، وهكذا حين يفقد المجتمع مرجعيته الجامعة فانه يفقد الحاضر والمستقبل معا .

يشير الباحث الاستراتيجي جاسم سلطان أن نهضة أي مجتمع تعمد على قوانين أساسية هي :
 لكل نهضة فكرة مركزية وفكرة محفزة
 لا تغيير إلا إذا حدث تغيير في عالم المشاعر
 لا تغيير إلا إذا حدث تغيير إيجابي في عالم السلوك.
 تحتاج أي نهضة لشريحة بدء وشريحة تغيير وشريحة بناء.
 لكل نهضة موفقة مؤشرات نجاح حساسة تبشر بإمكانية تحقيقها في الواقع.
 (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض).
 الأحداث العظيمة يصنعها اقتناص الفرص.
 إن نهضة الأمم تقاس بخصوتها في إنتاج الرجال الذين تتوافر فيهم شرائط القوة .[6]
 خلاصة القول:

إن مستقبل الدولة والمجتمع يقع على عاتق صناع القرار وقادة الفكر، فشككتنا في الأساس ليست مادية أو اجتماعية بقدر ما هي مشكلة فكرية ومنهجية تقوم على الإبداع في القيم والأفكار والوسائل التي تصنعها الأسرة والمدرسة والإعلام والجامعة والمؤسسات العامة ، فالعولمة قد اخترقت حدودنا الثقافية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية وصبحت أسوارنا مهتزة بأحجار متقلقلة بفعل عوامل الهدم، فهل تستيقظ العقول المستريحة قبل ابتلاع أجيالنا القادمة ويغادرنا التاريخ ؟.

المراجع:

- [1] وجهة العالم الإسلامي مالك بن نبي دار الفكر دمشق
- [2] ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية مالك بن نبي دار الفكر دمشق
- [3] تجربة بنك الفقراء د. مجدي سعيد موقع إسلام أولان
- [4] مشكلة الثقافة مالك بن نبي دار الفكر دمشق
- [5] حتى يغيروا ما بأنفسهم جودت سعيد المطبعة العربية الجزائر
- [6] قوانين النهضة (سلسلة القادة ومشروع النهضة) د. جاسم سلطان موقع مشروع النهضة